مقدمة الطبعة الثانية

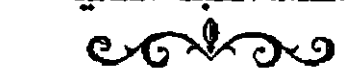

يتناول هذا الكتاب اللغات السرية الحافلة بالاصطلاحات المبهمة ودورها في حيوات أناس كثيرين.

واللغات السرية قد تكون منطوقة أو صامتة، وفي جميع الأحوال هي غامضة مستترة على سامعيها ومشاهديها، ما عدا طوائف في المجتمع تواطؤا على وضعها، لتخفي أغراضهم، وتحقق مطالبهم.

ومن هذه الطوائف: اللصوص، والمنجدين، وبائعو المخدرات، والصوّاغ، ومنهم العشاق المتيمون الذين نكأتهم جراح الحب، واستوروا مشاعرهم، وأمعنوا في إخفاء مقاصدهم عن الرقيب الدساس، والواشي النمام، والعذول الحاقد.

وهذه اللغات السرية استوحاها المتعاملون معها من حرفهم الوثيقة الصلة بهم، أو من حيواتهم الخاصة، وبخاصة العشاق، أو استلهموا فيها ذكاءهم، وأفادوا فيها

من خبراتهم، وخبرات السابقين عليهم، وبلغوا بها غايات، وحققوا نتائج.

وقد تعامل أناس كثيرون باللغات السرية في فترات طويلة من الزمن ، وفي مجتمعات مغلقة، أو شبه مغلقة يخيم عليهم السكون لقلة السكان ، وبساطة الأعمال، وهذه هي البيئة التي يصلح الحديث فيها بالسيم.

وقد استخدم كثير من الناس اللغات السرية لأنها تلائم طبيعتهم الإنسانية ، فكل شخص يعمد إلى تعمية حياته ، أو تغطية جانب منها ، أو فترة فيها أمام غيره، ويستعين على قضاء حوائجه بالسر والكتمان، أو عملا بالقول : « إذا بليتم فاستتروا» ، وحتى إذا كان عمل المرء ناجحًا مشكورًا فإنه يخشى الحسد، لذلك يعمد إلى السرية.

وتفرض السّرية نفسها في علائق الإنسان بالجنس الآخر ، فيحتاط، ويكون حذرًا متنبها للأخطار، ولا يبوح بالأسرار، وإنما يواريها في أعماقه، ومعظم الناس يرون أن عالمهم الخاص يخصهم، وليس من حق الآخرين الاطلاع عليه أو الاستخبار عنه ، ومن هنا يفضل كثيرون

من صّرعى الحب عدم الاعتراف بما جرى معهم إلى آخر أيامهم.

أما الطوائف الخطرة في المجتمع مثل طائفة للصوص، وطائفة تجار المخدرات فإنه يناسبهم السرية التامة أثناء ممارستهم للأعمال الضارة، وحتى إذا تابوا وندموا على ما فعلوا، وصار سلوكهم حسنا، فإن مخازيهم وخطاياهم قد تعقد ألسنتهم فلا يبوحون بشيء، ويطوون صفحة الماضي.

ويضم هذا الكتاب قدرًا من الملاحن العربية القديمة، وملاحن الطوائف الحِرفيّة، إضافة إلى ملاحن العشاق المتنوعة.

وملاحن العشاق لم تحظ بدراسات وافية شاملة، وجهد الكتّاب فيها قليل ونادر، وقد وضع نسيب المشعلاني معجمًا في معاني زهور كثيرة، وهو عمل ريادي، ولكن يعتوره أن زهوره أوربية ومعانيها كذلك ولم يوازن بينها وبين الزهور العربية من حيث المعاني والدلالات، وإنما ساقها كما استقاها من مصادرها، ويعوزه التحليل والتأمل والاستنباط، ومما يخفف من انتقاده ذكره في المقدمة لعدد

قليل من الأزهار ، وما دار حولها من حكايات وأساطير.

ويتضمن كتابنا هذا طائفة من الأشعار الغنائية وبخاصة في سيم العشق تكشف عن تجارب الشعراء والعشاق، وممارساتهم العشقية، والتخاطب بالعيون أو التراسل بالزهور، والشاعر عندما يتلقى زهرة من صاحبته لا يشاغله شكلها ولونها ورائحتها ، وإنما يطرب أو يحزن حسب ما تحمله من دلالة ، أما العيون فليست نجلاء أو دعجاء أو كحلاء ، أو واسعة وساحرة ، وإنما في السيم تتأمل وتتفكر ، وتنطق وتنصت، وتقبل وترفض، وكل هذا يتبدى في إشارات.

ولذلك فالأشعار التي أوردناها ليست غزلية، لأنه ليس فيها نسيب أو تشبيب ، ويصح أن يكون هذا النوع من الشعر غرضا مستقلا من أغراض الشعر، أو غرضا يلحق بغرض الغزل، فقول شاعرة:

صحائفنا إشاراتنا وأكثر رسلنا الحدق
لأن الكتب قد تقرا وليس برسلنا نثق

أو قول شاعر:

فسألتها بإشارة عن حالها وعليّ فيها للوشاة عيون

فتنفست صعدا وقالت ما الهوى إلا الهوان أزيل عنه النون

ليس فيه غزل، وفي البيتين الأخيرين حوار بالعيون بين صاحبين، هو سأل وهي أجابت، دون غزل.

والمحصول الشعري في مجال سيم العشاق، على قلته بالنسبة لديوان الشعر العربي الكبير، من أصدق الشعر وأصفاه؛ لأن قوامه التجربة الواقعية المرئية، والقلب المنفعل المختلج أثناء حوار بين عيون شخصين، تتدخل فيه جفون تتراخى وتتعالى، وحواجب ترتفع وتنكسر، وكل هذا يشاهده الشاعر العاشق ويفهمه، ويحكيه في تعبيره عنه، ومهما يكن من أمر فشعر سيم العشاق له سمات وملامح وخصائص، تختلف عن شعر الغزل المألوف الذي يتناول القدود والخدود والخصور، وجمال العيون، والشَّعر الجثل، والردف الثقيل وغير ذلك، وينهض على الفكر والخيال في بعض الأحيان.

وقد استلفتت نظري اللغات السرية أثناء قراءاتي على مدى طويل ، حتى عرفت مداخلها ، ومسالكها وميادينها على قدر المستطاع، ورغبت في الكتابة عنها، فنشرت ثلاث دراسات في الملاحن في جريدة «أخبار الأدب» إبان صدورها ، وفي عام ١٩٩٩ هاتفني الأستاذ خيري شلبي (١٩٣٨ – ٢٠١١) ، وكان يرأس وقتها سلسلة الدراسات الشعبية بالهيئة العامة لقصور الثقافة، وسألني عن كتاب يكون من تأليفي ويناسب سلسلته، فعرضت عليه فكرة هذا الكتاب ، فرحب ، ونُشر كتاب «سيم العشق والعشاق» عام ١٩٩٩ ، وقد تفضل الأستاذ خيري رحمه الله رحمة واسعة بتزيين الكتاب وتحسينه بمقدمة كعادته في كل كتاب ينشره في سلسلته، ومرة أخرى رحم الله خيري شلبي.

وقد نفد الكتاب وقت صدوره ، فعنوانه شد الشباب فابتاعوه من باعة الصحف، ورأيت إعادة نشره مع زيادات فيه

والله ولي التوفيق

أحمد حسين الطماوي

في يوم الخميس ١٩ من يوليه ٢٠١٢

هذا الكتاب

من السيم إلى علم الشفرة

بقلم خيري شلبي

لغة السيم شهيرة في العالم كله، وفي مصر على وجه التحديد شاعت لغة السيم بين الطوائف والجماعات المنحرفة كاللصوص وتجار المخدرات والشواذ جنسيًا، بل كان للطوائف ذات الحرف الشعبية الشائعة لغة السيم لا يفهمها أحد من خارج أبناء الفئة أو الطائفة ، حيث لكل مفردة من مفردات الكلام اليومي مقابل في لغة السيم، وبهذا يتمكن أهل الحرفة أو مجموعة اللصوص أو تجار المخدرات التحاور مع بعضهم البعض أمام الناس دون أن يفهم الآخرون ما يقال، وكان لابد من لغة السيم حتى لا يفهم الزبائن تفاصيل أسرار المهنة ، وحتى لا يعرف المخبرون السريون أسرار عمل اللصوص وتجار المخدرات.. إلخ.

وفي كتابه (مباحث الفولكلور) قدم الأستاذ محمد لطفي جمعة طائفة من لغة السيم الشائعة بين الطوائف.

ولكن الأستاذ أحمد حسين الطماوي يبحث في هذا الأمر بتوسع، ويصل إلى الجذور البعيدة في نشأة اللحن في اللغات قديمًا وحديثًا، عند الفراعين وإسبرطة وروما وعرب الجاهلية والمسلمين، وكيف استعمل العوام والحكام، والساسة وقواد الحروب وجواسيس الدول ورجال الأمن اللحن للإفادة منه، فيما عرف بلغة السيم، التي تطورت في عصرنا الحديث إلى ما يعرف الآن باسم الشفرة.

وفي عجالة سريعة يلم الأستاذ الطماوي بالمحاولات الدراسية التي بذلت في أوائل هذا القرن لاختراق اللغات السرية للطوائف، ويتوقف عند أهم محاولة في هذا الصدد، تلك هي دراسة نسيب المشعلاني، أو معجمه: (مخابرات الحب السرية) عام ١٨٩٧ م، فيضيفه كملحق لهذه الدراسة خدمة للمهتمين بهذا اللون من دراسة الأدب الشعبي.

وهذه الدراسة التي نقدمها اليوم تعتبر فريدة في بابها، نأمل أن تكون مفيدة للقراء والدارسين على السواء، ولا يفوتنا الإشارة إلى أن الأستاذ أحمد حسين الطماوي باحث دؤوب صبور، كثيرًا

ما يضع أيدينا على كنوز ثمينة مجهولة يقوم هو باكتشافها وتعريضها للضوء في سياق يضعها في إطارها التاريخي، وإننا لعلى يقين من أن دراسته هذه سيكون لها أصداء كبيرة بين عامة القراء.

شكرًا لكم.. والله ولي التوفيق

خيري شلبي

obeikan.com

obeikan.com

تمهيد

اللحن معروف عند الشعوب القديمة والحديثة، فقد استخدمه الفراعين وإسبرطة وروما وعرب الجاهلية واستعمله العوام والحكام والساسة، وأفاد منه القواد في الحروب، وجواسيس الدول ورجال الأمن في الحد من الجريمة، وخصصت له كتب في الغرب، ولكن الدراسات فيه عندنا ظلت قاصرة فترة طويلة في العصر الحديث، إذ انصرف معظم الباحثين إلى الكلام المفهوم، ونحوا جانبًا غيره مما يحمل معاني سرية خفية، ويبدو أنهم عدوا اللحن من مواد التندر والفكاهة، ومن هنا رأوا أنه لا يحتاج إلى تحصيل ودراسة، وإجهاد عقل وتحليل واستقصاء.

واللحن أو السيم قول يتفوه به شخص لآخر، فيعرف هو مغزاه، ويلتبس على غيره معناه، ولعل أهم الدواعي إلى اللحن هو صيانة الأسرار وحجبها عن الرقباء.

وقد مارست الدول القديمة ضروبا من اللحن للتكتم على أخبارها وإخفاء نواياها، فكان يوليوس قيصر يعبر في مراسلاته عن كل حرف بالحرف الرابع مما يليه في ترتيب

حروف الهجاء، فيعبر مثلا عن الألف بالثاء ، وعن الباء بالجيم، وهلم جرا، وكان أغسطس قيصر «يستبدل بكل حرف ما يليه في ترتيب حروف الهجاء، فيعبر عن الألف بالباء ، وعن الباء بالتاء ، وهكذا ، ثم استخدمت بعد ذلك الأرقام السرية والرموز.

واستعمل العرب اللحن الكتابي واللفظي وتفننوا فيهما منذ الجاهلية، وذكر القرآن الكريم اللحن والسيم ، وكان النبي ﷺ يستخدم اللحن ، وفي كتب الأدب توجد نصوص غير قليلة متناثرة تدل على استخدام العرب والمسلمين للملاحن في سلوكهم ، وفي دواوين حكمهم، وفي علاقتهم بالدول الأجنبية، ودخل اللحن في دواوين الأدب ، فتجده في أشعار كثيرين من الشعراء ، كما تجده في بعض المقامات.

وغاية ما وصل إليه العرب في هذا المجال هو «الترجمة» أو «علم التعمية» وهو علم واسع وكامل وضعوا أصوله وقواعده، وسبقوا فيه غيرهم، وأهم أعلامه الكندي الفيلسوف وابن الدنينيز وابن عدلان وعلي بن الدريهم وغيرهم، والترجمة هي الشفرة حسب المصطلح الحديث، والشفرة Cipher مأخوذة من الكلمة العربية الجفر. وعلم الجفر هو علم الحروف.

والترجمة تقوم على الحروف ولأصحاب هذا العلم طرائق عديدة في استخدامها للتعمية ، ومن الكتب التي تناولت هذا العلم « شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام» لأحمد بن وحشيه ، و«خصائص المعرفة في المعميات» لأسعد بن مماتي ، و«مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة» لابن دنينيز وغيرها.

وقد كتب العرب منذ وقت مبكر الرسائل بالحبر السري، فقد جاء في كتاب صبح الأعشى للقلقشندي جـ٩ تحت عنوان «في إخفاء ما في الكتب من السر»:

«وذلك بأن يكتب بشيء لا يظهر في الحال، فإذا وصل المكتوب إليه فعل فيه فعلا يكون مقررًا بين المتكاتبين من إلقاء شيء على الكتابة ، أو مسحه بشيء أو عرضه على النار ونحو ذلك وقد ذكروا لذلك طرقًا:

«منها أن يكتب في الورق بلبن حليب قد خلط به نوشادر فإنه لا تُرى فيه صورة الكتابة، فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة.

«ومنها أن يكتب في الورق أيضا بماء البصل المعتصر منه فلا ترى الكتابة فإذا قرب النار أيضا ظهرت الكتابة.

أما الطوائف الشعبية فلهم ملاحن تناسبهم ، ولغاتهم السرية ، خليط من الفصحى واللغات الأخرى، علاوة على تأثرهم بطريقة الترجمة وغير ذلك . وقد ظلت هذه اللغات سرية إلى أن ظهر من جمع قدرًا من مصطلحاتها ، وشرح معانيها.

وإذا كنا نجهل سيم الطوائف ، فإن بعض كلماتهم تسللت إلينا ، وشاعت بيننا، فنقول: فلان جلده (بخيل) أو على الحديدة (مفلس) ، أو فشلة (سمين) أو ياكلها والعة (ذمته وحشه) مونن (مسطول) ، صايع . (رديء) .

ولم يقتصر السيم على الطوائف الحرفية وإنما شمل أيضا العشاق المعاميد، فللعشاق ملاحن عديدة منها الزهور والثمار والنباتات التى جعلوا لها معانى ودلالات ، وصارت بينهم بمنزلة رسائل غرامية تعبر عن العواطف وتوهج الأشواق ، فإذا أهدى محب إلى محبوبته وردة فكأنه قال لها: أحبك ، وإذا أرسل إليها زهرة الدفلى فهو يحذرها من خطر محدق ، وإذا قدم إليها ثمرة البندق فكأنه يعبر عن الصلح والوفاق بينهما وهكذا، وقد عرف العرب قديما سيم الزهور ، وعبروا عنه فى أشعارهم.

وقد تناولت بعض الدوريات المصرية هذا الموضوع مثل : «الجامعة» و«الضياء» و«سركيس» و«الهلال» ، ولكنها لم تستوف الموضوع من كل جوانبه ، وخير من تحدث فى هذا الموضوع من الكتاب المبكرين أحمد تيمور، ولطفى جمعة والأخير تناول لحن الطوائف فى محاضرة سنة ١٩١٨، ولم يقدّر لها أن تطبع إلا فى عام ١٩٩٩، وفى أوائل التسعينيات أصدر على عيسى كتابه «اللغات السرية» ، ووقفه على سيم الطوائف، وفى عام ١٩٩٣ نشر كاتب هذه السطور ثلاث مقالات بجريدة «أخبار الأدب» عن الملاحن العربية وسيم الحرفيين ، ولحن العشاق ، وبين عامى ١٩٨٧، ١٩٩٦ أصدر مجمع اللغة العربية بدمشق كتابا فى جزءين هو «علم التعمية واستخراج المعمى عند العرب» وقد اقتصر على المعميات ، وهو كتاب علمى دقيق ، وفى عام١٩٩٥ نشر رابح لطفي جمعة مقالا عن اللغة السرية لبعض الطوائف والمهن .

أما عن الجهد المبذول فى لحن الزهور فهو قليل ، ولعل المعنى بالبحث فى هذا الميدان يقع على شيء هنا أو هناك فى كتب التراث وبخاصة كتاب «الموشي» ، وفي العصر الحديث نجد قصيدة فى لحن الزهور نظمها شاعر يدعى أمين حمدى عام ١٩١٦، ولأحمد أمين مقالة نشرها عام ١٩٤١ تناول فيها لحن

الأزهار والثمار. وفى عام ١٩٤٦ غنت أم كثوم فى فيلم «فاطمة» من كلمات محمود بيرم التونسي ، أغنية «لغة الزهور»، ويظهر فيها أن الورد دليل الشوق ، والفل يعني الشوق والانتظار، وعيون النرجس تكشف العواذل

أما أكبر جهد بُذل في هذا المجال فهو الذي نهض به نسيب المشعلاني، إذ أصدر معجم «مخابرات الحب السرية..» عام ١٨٩٧، وقد رأيتُ إعادة طبعه لطرافته، وتفرده في بابه، وأهميته في مجال الدراسات الشعبية.

ودراستي التي بين يدي القارئ تناولت شيئًا عن الملاحن العربية، وسيم الطوائف ، ولحن الزهور ، وإشارات العيون مع تحليلات لكل ذلك.

ولعل في هذا فائدة.

والله المستعان

أحمد حسين الطماوي

القاهرة - ٢٤ من يونيو ١٩٩٩